العجوزان(١)

ـ ٢ ـ

قال محدِّثي : ولمَّا قلتُ لهما : أيُّها العجوزان ! أريد أن أسافرَ إلى سنة ١٨٩٥ ، نظر إليَّ العجوز الظريف (ن) وقال : يا بنيَّ ، أحسب رؤيتك إيَّاي قد دنتْ من الآخرة . . . فتريد أن نلوذَ بأخبار شبابنا لتنظر إلينا ؛ وفينا روح الدُّنيا .

قال الأستاذ (م) : وكيف لا تريد الآخرة ؛ وأكثرك الآن في « المجهول » ؟

قال : ويحك يا (م) ! لا تزال على وجهك مسحةٌ من الشَّيطان هنا ، وهنا ، كأنَّ الشَّيطان هو الذي يُصلح في داخلك ما اختلَّ من قوانين الطَّبيعة ، فلا تستبينُ فيك السِّنُّ وقد نيَّفتَ على السَّبعين ، وما أحسِبُ الشَّيطان في تنظيفك إلا كالَّذي يكنس بيته .

---

(١) الجمهوريَّة من أهل اللغة على أنَّ (العجوز) وصف خاص بالمرأة إذا شاخت ، وهرمت ، ولكن جاء في اللسان : « ويقال للرَّجل : عجوز » ونقله صاحب التَّاج عن الصَّاغاني ، ونحن على هذا الرَّأي ، ولو لم يأتِ فيه نصٌّ عن العرب ؛ لابتدعناه ، وزدناه في اللغة ؛ ووجهه عندنا : أن الرَّجل والمرأة إذا بلغا الهرم ؛ فقدا خصائص الذُّكورة ، والأنوثة ؛ فلم يعودا رجلاً وامرأةً ، فاستويا في العجز ، فكان الرَّجل قميناً أن يشارك المرأة في وصفها ، فيقع اللفظ عليهما جميعاً ! .

وإنَّما امتنع العرب أن يقولوا للرَّجل (عجوز) وخصُّوا ذلك بالمرأة ، تعسُّفاً ، وظلماً ، وطغياناً ، كدأبهم مع النِّساء ، فإذا شاختِ المرأة ؛ فقد بطلت أنوثتها عندهم ، وعجَزت عن حاجة الرَّجل ، وعجَزت في كثيرٍ ، ونفتها الطَّبيعة ، وبرأت منها ؛ أمَّا الرَّجل ؛ فبالخلاف ، لأنَّه رجلٌ ؛ وإذا شاخَ وبطل وعجز ، ولم يستطع أن يكابر في المعنى ، كابر في اللفظ ، وأبى أن يقال : إنَّه (عجوز) وزعم أنَّ ذلك خاصٌّ بالمرأة .

ألا إنَّ هذا تزويرٌ في اللغة ، وإن كان للرَّجل عليهنَّ درجة ، فلذلك في أوصاف القدرة ، لا في أوصاف العجز ! . (ع) .

قال (م) : فأنت أيُّها العجوز الصالح بيتٌ قد تركه الشَّيطان ، وعلَّق عليه كلمة (للإيجار) .

فضحك (ن) وقال : تالله ! إنَّ الهَرَمَ لهو إعادة درس الدُّنيا . وفهمُها مرَّةً أخرى فهماً لا خطأ فيه ؛ إذ ينظر الشَّيخ بالعين الطَّاهرة ، ويسمع بالأذن الطَّاهرة ، ويلمِس باليد الطَّاهرة . . وتالله ! إنَّ الشَّيْطان لا معنى له إلا أنَّه وقاحة الأعصاب .

قال (م) : فأنت أيُّها العجوز الصَّالح إنَّما أصبحت بلا شيطانٍ ؛ لأنَّ الهَرَمَ قد أدَّب أعصابك .

قال العجوز الظَّريف : وعند مَنْ غيرنا نحن الشُّيوخ تُطاع الأوامرُ ، والنَّواهي الأدبيَّة حقَّ طاعتها ؟ عند من غير الشُّيوخ تُقدَّس مثلُ هذه الحكم العالية : لا تعتدِ على أحد . . . لا تُفسد امرأةً على زوجها .

* * *

قال المحدِّث : وضحكنا جميعاً ، وكان العجوز (ن) من الآيات في الظَّرف والنُّكتة ، فقال : تظنُّني يا بنيَّ في السَّبعين ؟ فوالله ! ما أنا بجملتي في السَّبعين ، والله ! والله !

قال (م) : لقد اهتزَّ الشَّيخ[1] يا بنيَّ ، فإنَّ هذا مِنْ خَرَفه ، فلا تُصدِّقه .

قال (ن) : والله ! ما خَرِفتُ ، وما قلتُ إلا حقّاً ، فها هنا ما عمره خمس سنوات فقط ، وهو أسناني .

قلتُ : « ورينا ، وريت » وسنة ١٨٩٥ ؟ .

قال الأستاذ (م) : أنت يا بنيَّ من المجدِّدين ، فما هواك في القديم وما شأنك به ؟ .

وما كاد العجوز (ن) يسمع هذا حتَّى طرَف بعينيه[2] ، وجدَّد بصره إليَّ ، وقال : أئنَّك لأنت هو ؟ لعمري ! إنَّ في عينيك لضجيجاً ، وكذباً ، وجدالاً ، واحتيالاً ، وزعماً ، ودعوى ، وكفراً ، وإلحاداً ، ولعمري .

---

(١) أي : أخطأ في الرأي من تأثير الكِبَرِ . (ع) .

(٢) أي : حرَّك أجفانهما . (ع) .

فقطعت عليه ، وقلت : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] [١] ، لقد وقع التَّجديد في كلِّ شيءٍ إلا في الشُّيوخ أجساماً ، والشُّيوخ عقولاً ، فهؤلاء عند النِّهاية ، وغير مستنكرٍ من ضعفهم أن يدينوا الماضي ، فإنَّ حياتهم لا تلمِسُ الحاضر إلا بضَعفٍ !

قال العجوز(ن) : رحم الله الشَّيخ (ع) ! وكان هذا يا بنيَّ رجلاً ينسخ للعلماء في زمننا القديم ، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكرَّاسة الواحدة ، وهو رديء الخطِّ ، فإذا ورَّق لأديبٍ ، ولم يعجبه خطُّه ، فكلَّمه في ذلك ؛ تعلَّق الشَّيخ به ، وطالبَه بعشرين قرشاً عن الكرَّاسة ، منها عشرةٌ للكتابة ، وعشرةٌ غرامةٌ لإهانة الكتابة .

نعم يا بنيَّ ، إنَّ للماضي في قلوبنا مواقع ، ينزل فيها ، فيتمكَّن ، ولكن قاعدة (اثنان واثنان : أربعة) لا تُعدُّ في الماضي ، ولا في الحاضر ، ولا في المستقبل ، والحقيقة بنفسها ، لا باسمها ، وليست تحتاج النَّار إلى ثوب المرأة إلا في رأي المغفَّل .

قال الأستاذ (م) : وكيف ذلك ؟ .

قال العجوز (ن) : زعموا : أنَّ مغفَّلاً كان يرى امرأته تُضرم الحطب ، فتنفخ فيه حتَّى يشتعل ، فاحتاج يوماً في بعض شأنه إلى نارٍ ، ولم تكن امرأته في دارها ، فجاء بالحطب ، وأضرم فيه ، وجعل ينفخ ، وكان الحطب رطباً ، فدخَّن ، ولم يشتعل ، ففكَّر المغفَّل قليلاً ، ثمَّ ذهب ، فلبسَ ثوبَ امرأته ، وعاد إلى النَّار وكان الحطب قد جفَّ ، فلم يكد ينفخ حتَّى اشتعل ، وتضرَّم ، فأيقن المغفَّل أنَّ النَّار تخاف امرأته . . . وأنَّها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها ! .

* * *

قال الأستاذ (م) : إنَّ الكلام في القديم ، والجديد أصبح عندنا كفنون الحرب : تُبدع ما تبدع لتغيير ما لا يتغيَّر في ذات نفسه ، وعلى ما بلغت وسائلُ الموت في القديم والجديد ، فإنَّها لم تستطع أن تميت أحداً مرَّتين .

---

(١) « سكرتهم » : غوايتهم وضلالتهم . « يعمهون » : يعمون عن الرشد ، أو يتحيَّرون .

لقد قرأت يا بنيَّ كثيراً ، فلم أرَ الآن من آثار المجدِّدين عندنا شيئاً ذا قيمةٍ ، ما كان من هُراءٍ ، وتقليدٍ زائفٍ ؛ فهو من عندهم ، وما كان جيِّداً ، فهو كالنَّفائس في ملك اللِّص : لها اعتباران ، إن كان أحدهما عند مقتنيها ؛ فالآخر عند القاضي[1] .

كلاً أيُّها اللِّصُّ ، لن تسمَّى مالكاً بهذا الأسلوب ، إنَّما هي كلمة تسخر بها من النَّاس ، ومن الحقِّ ، ومن نفسك .

يقولون : العلم ، والفنُّ ، والغريزة ، والشَّهوة ، والعاطفة ، والمرأة ، وحرِّيَّة الفكر ، واستقلال الرَّاي ، ونبذ التقاليد ، وكسر القيود . . . إلى آخره ، وإلى آخرها . . فهذا كلُّه حسنٌ مقبولٌ سائغٌ في الورق إنْ كان في مقالةٍ ، أو قصَّةٍ ، وهو سائغٌ كذلك حين ينحصر في حدوده الَّتي تصلح له من ثياب الممثلين ، أو من بعض النُّفوس الَّتي يمثِّل بها القدر فصوله السَّاخرة ، أو فصوله المبكية ، ولكنَّهم حين يخرجون هذا كلَّه للحياة على أنَّه من قوَّتها الموجبة ، تردُّه الحياة عليهم بالقوَّة السَّالبة ؛ إذ لا تزال تخلق خلقها ، وتعمل أعمالها بهم ، وبغيرهم ، وإذا كان في الإنسانيَّة هذا القانون ؛ الَّذي يجعل الفكر المريض حين يهدم من صاحبه ؛ يهدم في الكون بصاحبه ، ففيها أيضاً القانون الآخر الَّذي يجعل الفكر الصَّحيح السَّامي حين يبني من أهله ؛ يبني في الكون بأهله .

* * *

قال العجوز (ن) : زعموا : أنَّ أحد سلكي الكهرباء كان فيلسوفاً مجدِّداً ، فقال للآخر : ما أراك إلا رجعيّاً ؛ إذ كنتَ لا تتبعني أبداً ، ولا تتَّصل بي ، ولا تجري في طريقي ، ولن تفلح أبداً إلا أن تأخذ مأخذي ، وتترك مذهبك إلى مذهبي . فقال له صاحبه : أيُّها الفيلسوف العظيم ، لو أنِّي اتَّبعتك ؛ لبطلنا معاً ، فما أذهب فيك ، ولا تذهب فيَّ ، وما علمتُك تشتمني في رأيك إلا بما تمدحني به في رأيي .

قال العجوز : وهذا هو جوابنا إذا كنَّا رجعيين عندهم من أجل الدِّين ، أو

(١) في كتابنا (تحت راية القرآن) كلامٌ كثيرٌ عن التجديد ، والمجدِّدين ، وما نراه من ذلك حقّاً ، وما نراه باطلاً . (ع) .

الفضيلة ، أو الحياء ، أو العفَّة . . . إلى آخرها ، وإلى آخره ، ونحن لا نرى هؤلاء المجدِّدين عند التَّحقيق إلا ضروراتٍ من مذاهب الحياة ، وشهواتها ، وحماقاتها تلبَّست بعض العقول ، كما يتلبَّس أمثالها بعض الطِّباع ، فتزيغ بها ، وللحياة في لغتها العلميَّة مترادفاتٌ كالمترادفات اللفظيَّة : تكون الكلمتان ، والكلمات بمعنىً واحدٍ فالمخرِّب ، والمخرِّف ، والمجدِّد بمعنىً .

كلُّ مجدِّدٍ يريد أن يضع في كلِّ شيءٍ قاعدة نفسه هو ، فلو أطعناهم ؛ لم تبق لشيءٍ قاعدة .

قال الأستاذ (م) : إنَّ هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن تكون على سنَّتها ، وما تصلح به من الضَّبط ، والإحكام ، والجلب لها ، والدَّفع عنها ، والمحافظة عليها بوسائلها الدَّقيقة الموزونة المقدرة ، والسَّهلة في عملها ، الصَّعبة في تدبيرها ، فعلى نحوٍ ممَّا كانت الحياة في بطن الأمِّ يجب أن نعيش في بطن الكون بحدودٍ مرسومةٍ ، وقواعد مهيَّأةٍ ، وحيِّزٍ معروفٍ ، وإلا بقيت حركات هذا الإنسان في معناها كحركات الجنين ، يرتكض ؛ ليخرج عن قانونه ، فإنِ استمرَّ عمله ألقى به مَسخاً مشوَّهاً من جسدٍ كان يعمل في تنظيمه ، أو قذَف به ميتاً من جسمٍ كان كلُّ ما فيه يعمل لحياته ، وصيانته .

هذا الجسم كلُّه يَشْرَع للجنين ما دام فيه ، وهذا الاجتماع كلُّه يَشْرَع للفرد ما دام فيه ، فكيف يكون أمرٌ من أمرٍ إذا كان الجنين مجدِّداً لا يعجبه مثلاً وضع القلب ، ولا يرضيه عمل الدَّم ، ولا يريد أن يكون مقيَّداً ؛ لأنَّه حرٌّ ؟

أُنظرْ إلى هذا الشُّرطيِّ في هذا الشَّارع يضربُ مُقبلاً ؛ ليدبر ، ومدبراً ؛ ليقبل ، وقد ألبسته الحكومة ثياباً يتميَّز بها ، وهي تتكلَّم لغةً غير لغة الثِّياب ، وكأنَّها تقول : أيُّها الناس ! إنَّ ها هنا الإنسان الَّذي هو قانونٌ دائماً ؛ والَّذي هو قوَّةٌ أبداً ، والَّذي هو سجنٌ حيناً ؛ والَّذي هو الموت ؛ إذا اقتضى الحال .

أتحسِب يا بنيَّ هذا الشُّرطيَّ قائماً في هذا الشارع كجدران هذه المنازل ؟ ! كلاَّ يا بنيَّ ! إنَّه واقفٌ أيضاً في الإرادة الإنسانيَّة ، وفي الحسِّ البشريِّ ، وفي العاطفة الحيَّة ؛ فكيف لا يمحوه المجدِّدون مع أنَّه في ذاته إرغامٌ بمعنى ، وإكراهٌ بمعنى غيره ، وقيدٌ في حالةٍ ، وبلاءٌ في حالةٍ أخرى ؟ .

لكنَّه إرغامٌ ؛ ليقع به التَّيسير ، وإكراهٌ ؛ لتنطلقَ به الرَّغبة ، وقيدٌ ؛ لتتجمَّد به الحرِّيَّة ؛ وكان هو نفسه بلاءً من ناحيةٍ ؛ ليكون هو نفسُه عِصمةً من النَّاحية الَّتي تقابلها .

يا بنيَّ ! كلُّ دينٍ صالحٍ ، وكلُّ فضيلةٍ كريمةٍ ، وكلُّ خلقٍ طيِّبٍ . كلُّ شيءٍ من ذلك إنَّما هو على طريق المصالح الإنسانيَّة ، كهذا الشُّرطيِّ بعينه : فإمَّا تخريبُ العالم أيها المجدِّدون ، وإمَّا تخريب مذهبكم .

* * *

قال العجوز (ن) : أنبحث عمَّا تتسلَّط به ، أم نبحث عمَّا يتسلَّط علينا ؟ وهل نريد أن تكون غرائزنا أقوى منَّا ، وأشدَّ ، أو نكون نحن أشدَّ منها وأقوى ؟ هذه هي المسألة ، لا مسألة الجديد ، والقديم .

فإن لم يكن هناك المثل الأعلى الذي يعظم بنا ، ونعظم به ، فسَدَ الحسُّ ، وفسدتِ الحياةُ ، وكلُّ الأديان الصَّحيحة ، والأخلاق الفاضلة إنْ هي إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسُّموِّ بالحياة في آمالها ، وغاياتها عن الحياة نفسها في وقائعها ، ومعانيها .

* * *

قال المحدِّث : وأريتني بين العجوزين كأنِّي بين نابَيْن ، ولم أكن مجدِّداً على مذهب إبليس الَّذي ردَّ على الله والملائكة ، وظنَّ لحمقه : أنَّ قوَّة المنطق تغيِّر ما لا يتغيَّر ؛ فسكتُّ ؛ حتَّى إذا فرغا من هذه الفلسفة ؛ قلت : والرِّحلة إلى سنة ١٨٩٥ ؟ .

* * *